﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشّورى: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تسليةُ النَّبيِّ بعدَ إعراضِ المعرِضينَ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أمرَ اللّه لنبيّه ﷺ بدعوة المشركين إلى الإيمان في آيات كثيرة في السّورة؛ لكنّهم أعرضوا ولم يقبلوا؛ قال اللّه لرسوله في هذه الآية من باب الإعلام بمقامه وعُلوّ قدرِه: إن أعرض المعرضون بعد هذا كلّه، ولم يستجيبوا، فما أرسلناك حفيظًا عليهم، ومتكفّلًا بهم، فما عليك إلّا البلاغ(1).

ومنها: لمّا أمرَ ﷺ بالاستجابةِ لهُ في الآية السّابقة؛ سلَّى نبيَّهُ ﷺ في هذه الآية بأنَّهُ غيرُ مسؤولٍ عن إعراضِ المعرِضينَ بعدَ أداءِ ما كلَّفَهُ اللّهُ بهِ(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَفِيظًا﴾: (الحفظ) يقال تارةً لهيئة النّفس التي بها يثبت ما يُؤدّي إليه الفهم، وتارةً لضبط الشّيء في النّفس، ويُضادُّه النّسيان، وتارةً لاستعمال تلك القوّة؛ فيُقال: حفظت كذا حفظًا؛ ثمّ يُستعمل فيما يدلُّ على مراعاةِ الشَّيءِ(3)، وتعهُّدِهِ وتفقُّدِهِ ورِعايتِهِ(4)، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حفظَ المالَ والسِّرَّ، أي: رعاهُ(5)، والمحافظةُ: المراقبةُ(6)، والحفيظُ: هو الموكَّلُ بحفظِ الشَّيءِ(7)، والمراد هنا: فما أرسلناكَ متكفِّلًا بهم(8).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 42، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حفظ).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (حفظ).
(7) الخليل، العين: (حفظ).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.

2) ﴿ٱلۡبَلَٰغُۚ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوصولِ إلى الشَّيءِ[1]، ومِنْ ذلكَ: البُلوغُ، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المَقْصِدِ والمُنتهَى، مكانًا كانَ أو زمانًا أو أمرًا مِنَ الأمورِ المُقدَّرةِ[2]، يقالُ: بلغَ زيدٌ مُرادَهُ، إذا وصلَ إلى ما يريدُ[3]، وبلغَ المكانَ بُلوغًا، إذا وصلَ إليهِ وانتهَى[4]، والبلاغُ: التَّبليغُ[5]، وهو إيصالُ الخبرِ إلى المخبَرِ به، وهو المرادُ هنا[6].

3) ﴿أَذَقۡنَا﴾: (ذوق) أصلٌ يدلُّ على اختبارِ الشَّيءِ مِنْ جهةِ تطعُّمٍ[7]، والذَّوقُ: وجودُ طعمِ شيءٍ بالفمِ[8]، وأصلهُ فيما يقلُّ تناولُه دونَ ما يكثر، فإنّما يكثر منه يقال له الأكلُ، وكَثُرَ في القرآنِ استعمالُ الذَّوقِ والإذاقةِ في العذابِ[9]، والمرادُ بالإذاقةِ هنا: الإصابةُ[10].

4) ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾: (صوب) أصلٌ يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه، ومِنْ ذلكَ: الصَّوابُ في القولِ والفعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازلٌ مُستقرٌّ في قرارِه، وهو خِلافُ الخطأ[11]، وهو يقالُ على وجهينِ؛ أحدُهما: باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ، إذا كانَ في نفسِهِ محمودًا ومرضيًّا، كقولِكَ: الكرمُ صوابٌ، والثّاني: باعتبارِ القاصدِ إذا أدركَ المقصودَ، فيقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طلبَ، ويقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصلَ إلى المرمى بالصَّوابِ[12]، والمرادُ بإصابةِ السَّيِّئةِ لهُم هنا: نزولُها بهِم.

5) ﴿كَفُورٌ﴾: (كفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[13]، وقد وُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَتْرِهِ الأشخاصَ، والزّارعُ لسترِهِ البذرَ في الأرضِ، وكُفْرُ النِّعمةِ وكُفْرانُها: سَتْرُها بتركِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(2) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بلغ).
(5) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بلغ).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ذوق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).

أداءِ شُكْرِها[1]، والكفرُ: نقيضُ الإيمانِ[2]، والمرادُ بـ ﴿كَفُورٌ﴾ هنا: أنَّهُ نسّاءٌ للنِّعمةِ، ذكّارٌ للبليَّةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعراضُ المشركين عن دعوة الحقّ في السّرّاء والضّرّاء

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالِ المشركينَ معَ دعوةِ الحقِّ، ويواسي نبيَّهُ، فيقولُ: فإنْ أعرضَ هؤلاءِ المشركونَ عمّا أتيتَهم بهِ مِنَ الحقِّ، فلم يستجيبوا لكَ؛ فدَعْهم، فإنّا لم نُرْسِلْكَ إليهم رقيبًا عليهم، تحفظُ عليهِم أعمالَهم وتُحصيها، ما عليكَ إلّا أنْ تُبلِّغَهم ما أرسلناكَ بهِ إليهِم، فإذا بلَّغتَهم ذلكَ فقد قضيتَ ما عليكَ، فإنّا إذا أعطَيْنا ابنَ آدمَ مِنْ عندِنا سَعَةً؛ سُرَّ بما أعطَيْناهُ، وإنْ أصابَهم فقرٌ ومرضٌ ونحوُ ذلكَ بسببِ ما أسلفَتْ أيديهِم مِنَ الكفرِ والمعاصي؛ جَحَدوا نعمةَ اللّه، وأيِسوا مِنَ الخيرِ؛ فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ نِعَمَ ربِّه، يُعدِّدُ المصائبَ، ويَجْحَدُ النِّعَمَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِنْ﴾:

إعلامُ اللهِ لرسولِه بأداءِ مهمّتِه وإن أعرض المُعرضون

الفاءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾ للتَّفريعِ على قولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ، وهو جامعٌ لِما تقدَّم؛ إذ أمرَ اللّهُ نبيَّهُ بدعوتِهم للإيمانِ مِنْ قولِهِ في أوَّلِ السّورةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشّورى: 7]، ثمَّ قولِهِ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ [الشّورى: 15]، وما تخلَّلَ ذلكَ واعترضَهُ مِنَ الأمرِ الصَّريحِ والضِّمنيِّ، إلى قولِهِ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ، ثمَّ فرَّعَ على ذلكَ كلِّهِ إعلامَ الرَّسولِ ﷺ بمقامِهِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (كفر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 60.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 556، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 61.

وعملِهِ إنْ أعرضَ مُعرِضونَ مِنَ الَّذينَ يدعوهُم، وبمعذرتِهِ فيما قامَ به، وأنَّهُ غيرُ مُقصِّرٍ، ولمّا كانَ ما سبقَ مِنَ الأمرِ بالتَّبليغِ والدَّعوةِ مصدَّرًا بقولِهِ أوائلَ السّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾ [الشّورى: 6]؛ ناسبَ أنْ يُفرِّعَ على تلكَ الأوامرِ بعدَ تمامِها مِثلَ ما قدَّمَ لها، فقالَ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾[1].

نُكْتَةُ الالتفاتِ في: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾:

المُعرِضُ لا يستحِقُّ شرفَ الخطابِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ تلوينٌ للكلامِ، وصرفٌ لهُ عن خطابِ النّاسِ بعدَ أمرِهم بالاستجابةِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾، وتوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ[2]، وإلّا فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (فإنْ أعرضتُم)، ونُكْتَةُ هذا الالتفاتِ: نقلُهم مِنَ الخطابِ الَّذي فيهِ غايةُ الاقترابِ منهُم، إلى طريقِ الغَيبةِ المشيرِ إلى أنَّهم لمّا أعرضوا أعرضَ اللهُ عنهُم، وغيَّبَهم عن حضرةِ شرفِ الخطابِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) دونَ (إذا):

غفلةُ المُعرِضينَ عنِ التَّدبُّرِ في دلائلِ الحقِّ

جيءَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ بأداةِ الشَّرطِ الَّتي تكونُ في الأمرِ المشكوكِ فيه، معَ أنَّ إعراضَهم مقطوعٌ بهِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لو تدبَّروا ما أعرضوا، خصوصًا إذا تدبَّروا صورةَ الظّالمينَ، وما آلَ إليهِ حالُهم، وعَلِموا أنَّ اليومَ لا مَرَدَّ لهُ مِنَ اللهِ، وأنَّهُ ما لهُم فيهِ مِنْ ملجأٍ، وما لهُم مِنْ نكيرٍ، كلُّ ذلكَ يقطعُ بعدمِ الإعراضِ فضلًا عن أنْ يكونَ مشكوكًا فيهِ[4]، وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بـ (إن) دون (إذا): فتحُ البابِ أمامَ المُعرضين للاستجابة لأمر ربّهم؛ بخلاف التّعبير بـ (إذا)، فإنّه يقْطَعُ بعدم رجوعهم عنِ الإعراض.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 132.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 222.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 222.

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي في: ﴿أَعْرَضُواْ﴾:

إعراضُ المشركينَ متحقِّقٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي ﴿أَعْرَضُواْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإعراضِ ورسوخِهم فيه، وللتَّوصُّلِ بهذهِ الصّيغةِ إلى ذمِّهم بسببِ صدورِهِ عنهُم، معَ أنَّ الظّاهرَ أنْ يصدرَ عنهُم خلافُهُ؛ لقوَّةِ دلائلِ الحقِّ ووضوحِها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإعراضِ دونَ التّولّي:

شدَّةُ نُفورِ المشركينَ مِنَ الحقِّ

عُبِّرَ بالإعراضِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ دون التّولّي؛ لأنَّ المُعرِضَ هو الَّذي يُديرُ ظهرَهُ لِما أمرَهُ اللّهُ به، ولِما دعاهُ إليه، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّهم لم يتدبَّروا، ولم يُراجِعوا، ولو تدبَّروا وراجعوا لأقبلوا[1]؛ بخلاف التّولّي فهو أقلّ منَ الإعراض؛ لأنّ المتولّي إذا نَدِم سَهُل عليه الرّجوعُ.

غرضُ حذفِ متعلَّقِ الإعراضِ:

شأنُ المشركينَ الإعراضُ عنِ الحقِّ

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ تقديرُهُ: فإنْ أعرضوا عنِ الإيمانِ[2]، وقد حُذِفَ المتعلَّقُ لظهورِهِ مِنَ السِّياقِ، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ شأنُهم الإعراضُ عنِ الحقِّ أيًّا كانَ، وأنَّ ذلكَ صفةٌ مِنْ صفاتِهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء المشركين يُعْرِضون عن كلّ ما فيه الخير، ولذلك يكون الحَذْفُ من باب العموم، ويجوز أن يكون المراد الإعراضَ عن الرّسول ﷺ، ولكنّ القرآنَ لم يذكر ذلك بأن يقول: (فإن أعرضوا عنك)، من باب تعظيم قَدْرِه ﷺ وعُلوّ مكانته.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾:

مَنْ لم يُرسَلْ حفيظًا على المشركينَ، فهو غيرُ مؤاخَذٍ بإعراضِهم

تدلُّ الفاء في قوله ﷻ: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ على ترتيبِ ما بعدَها على الجوابِ المحذوفِ؛ لأنَّ هذا المحذوفَ مُقدَّرٌ، والمُقدَّرُ كالمَذكورِ[3]، وهي واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وليسَت جوابًا لهُ؛ لأنَّ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 222.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133، وأبو موسى، آل حم، ص: 223.

إرسالَهُ ﷺ غيرَ حفيظٍ أمرٌ متقرِّرٌ، أعرَضوا أو أقبَلوا، والجوابُ محذوفٌ، وحَذْفُهُ يمنحُ القارئَ سَعَةً في التَّقديرِ، يوجبُ عليهِ أنْ يراجعَ السِّياقَ، وأنْ يعيدَ التَّدبُّرَ والمراجعةَ، وأنْ يقولَ: إنَّ أصلَ الكلامِ: فإنْ أعرَضوا فلا تأسَفْ عليهِم، ولا تحزَنْ، أو أنْ يقولَ: فإنْ أعرَضوا فلا لومَ عليكَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

الحَرَجُ والتَّقصيرُ منفيّانِ عنِ النَّبيِّ يقينًا

جيءَ بصيغةِ الماضي المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ حفيظًا أمرٌ قد ثبتَ وتقرَّرَ، وفي ذلكَ تقويةٌ لمقامِ المواساةِ لهُ، ورفعِ الحَرَجِ والتَّقصيرِ عنهُ، وفي هذا التَّعبيرِ إشارةٌ إلى تكريمِ اللهِ لرسولِه، وإعلامٌ برسالتِه ﷺ إلى خَلْقِه، وأنّ المنفيَ الحفظُ وليس عدمَ الرّسالة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرسالِ في: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

الإرسالُ يحملُ معنى التّؤدَة والتّأنّي والطّمأنينة

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإرسالِ في قولِه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ دونَ البعثِ؛ لأنّ الإرسالَ يحملُ معنى التُّؤَدَة والتّأنّي والطّمأنينة؛ بخلافِ البعثِ، فيحملُ معنى الإثارةِ والتّوجيهِ، ولمّا كانَ المقامُ هنا في تسليتِه ﷺ على إعراضِ قومِه عن قَبولِ الدّعوةِ كانَ التّعبيرُ بالإرسالِ هو الأنسبَ؛ لِما فيه من معاني الطّمأنينة.

إسنادُ الإرسالِ إلى نونِ العظَمةِ:

فعلُ العظيمِ عظيمٌ

أُسنِدَ فعلُ الإرسالِ المنفيِّ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ عدمِ إرسالِ النَّبيِّ حفيظًا على المشركينَ، وتعظيمِ شأنِ المُرسِلِ سبحانَهُ، والمعنى: فما أرسلناكَ - معَ ما لَنا مِنَ العظَمةِ - عليهِم حفيظًا[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.

دلالةُ تعْديةِ فعل الإرسال بـ (على):

ما على الرّسول إلّا البلاغ

عُدّي فعلُ الإرسال بـ (على) دون (إلى) أو (اللّام) فقال تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ لأنّ تعدية الفعل (أرسل) باللّام تعني التّبليغ، وتعديتُه بـ (إلى) فيها مزيدُ تأكيدٍ على البلاغ؛ بخلاف تعديتِه بـ (على) فهي تعني الإلزامَ والحملَ على الشّيء، ولذلك جاء النّفي هنا في قوله: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ لبيان أنّ الإلزام ليس من شأنه ﷺ، وإنّما شأنُه البلاغُ فقط.

سِرُّ التّعبيرِ بـ (على):

الحفيظُ مهيمنٌ على ما يحفظُهُ

عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ - وهو متعلِّقٌ بـ ﴿حَفِيظٗاۖ﴾ - لأنَّ الحفيظَ هنا بمعنى الوكيلِ، ولذلكَ عُدِّيَ تعديتَهُ، وأيضًا في التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ إشارةٌ إلى أنَّ الحفيظَ مهيمنٌ على ما وُكِّلَ بحفظِه، حتَّى كأنَّهُ مُستَعْلٍ عليه.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

ليس عليك هُداهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حَفِيظٗاۖ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ للعنايةِ بتعلُّقِ انتفاءِ إرسالِه ﷺ حفيظًا بالمُعرِضينَ؛ لأنّ الرّسول ﷺ كان معنيًّا بقومه، حريصًا على هدايتهم؛ فأراد اللّهُ أن يُخفّف عن نفسه ﷺ ؛ فقال له: لستَ حفيظًا على هؤلاء المشركين المُعْرِضين، ولو لم يُقَدّمِ الجارُّ والمجرور لفُهِمَ انتفاءُ حفظِه على الإطلاق، وهذا غير مراد.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحفيظِ:

الحفظُ لله والبلاغُ للرّسول ﷺ

عُبِّرَ بالحفيظِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾؛ لِما تشيرُ إليه هذهِ الكلمةُ مِنْ كونِ الحفيظِ رقيبًا على ما وُكِّلَ بحفظِه، يحفظُ أعمالَهُ، ويُحصيها[1]، ويقهرُهُ على الامتثالِ[2]، ففي الإتيانِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 47.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.

بهذهِ الصِّفةِ في سياقِ النَّفي تنبيهٌ على أنَّهُ ﷺ مكلَّفٌ بالتَّبليغِ فقطْ، وليسَ إليهِ إحصاءُ أعمالِ العبادِ، ولا إجبارُهم على الإيمانِ، وإنَّما ذلكَ للّهِ وحدَهُ إنْ شاءَ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّخفيفِ عنهُ ﷺ والتَّسليةِ لهُ[1]، وفيها موافقةٌ لسياقِ السّورةِ في إثباتِ هذهِ الصّفةِ للّهِ تعالى؛ حيثُ ورد ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ [الشّورى: 6]؛ لأنّ الحفظ من خصائص الأُلوهيّة.

نُكْتَةُ صيغةِ (فعيل) في: ﴿حَفِيظًا﴾:

المبالغةُ في نفي رقابةِ النَّبيِّ ﷺ على الخَلْقِ

الحفيظُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ (فعيلٌ) بمعنى (فاعلٍ)، أي: بمعنى حافظٍ، وفي التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ) مبالغةٌ في نفيِ اتِّصافِهِ ﷺ بالرَّقابةِ على الخَلْقِ، وليلائمَ مِنْ حيثُ الوزنُ كونَهُ بمعنى الرَّقيبِ والوكيلِ، فهما أيضًا عِلّةُ زِنَةِ (فعيلٍ).

عِلَّةُ فصلِ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

الرَّسولُ مبلِّغٌ لا حفيظٌ

فُصِلَ قولُهُ ﷺ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ عن قولِهِ: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ مؤكِّدٌ لهُ؛ لأنَّ قَصْرَ رسالتِهِ ﷺ على البلاغِ تأكيدٌ لنفيِ أنْ يكونَ حفيظًا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ فصلُهُ عنهُ؛ لأنَّهُ بيانٌ لهُ، باعتبارِ أنَّ هذهِ الجملةَ دالَّةٌ على جوابِ الشَّرطِ المقدَّرِ[3].

بلاغةُ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

التّفريقُ بينَ مقامِ الأُلوهيَّةِ ومقامِ الرِّسالةِ

القَصْرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ إضافيٌّ، أي: إنْ عليكَ إلّا البلاغُ لا الحفظُ[4]، وأمّا الهدايةُ والإضلالُ فإلينا[5]، وقد جاءَ القَصْرُ بالنَّفي والاستثناءِ معَ أنَّ المخاطَبَ ﷺ لا يُنكِرُ ذلكَ ولا

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 223.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 426.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 348.

يجهلُهُ - والمقامُ مقامُ (إنَّما) الَّتي تُستعمَلُ فيما لا يجهلُهُ المخاطَبُ، أو فيما مِنْ شأنِهِ ألّا يجهلَهُ - لأنَّ الجملةَ الَّتي قبلَها مهيِّئة لها، وجِيءَ بالنّفي والاستثناءِ لتأكيدِ هذا المعنى البالغِ الأهمِّيَّةِ في عقيدةِ المسلمينَ، وهو الفرقُ الحاسمُ بينَ مقامِ الألوهيَّةِ ومقامِ الرِّسالةِ، وأنَّ الحفيظَ والوكيلَ هو اللّهُ لا غيرُهُ، وأنَّ النُّبوَّةَ بلاغٌ عنهُ لا غيرُ[1]، وفيه توجيه للدّعاة أن يبذلوا جهدَهم في البلاغ فقط، وليس عليهم النّتائجُ، فهذا مَردّه إلى الله.

بلاغةُ الجِناسِ بينَ (إنْ) الشّرطيّة و﴿إِنْ﴾ النّافية:

التَّناغمُ اللَّفظيُّ بينَ أداتَي الشَّرطِ والنَّفي

(إنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ شرطيَّةٌ، و﴿إِنْ﴾ الثّانيةُ في قولِهِ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ نافيةٌ، والجمعُ بينَهما في هذهِ الآيةِ جناسٌ تامٌّ[2]، وهو لونٌ مِنْ ألوانِ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ، يُعطي تناغمًا لفظيًّا في الكلامِ.

دلالةُ التّعبير بحرف الاستعلاء (على):

البلاغُ أمانةٌ ثقيلةٌ

حرفُ الجرِّ (على) للاستعلاءِ، وهو يشيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ إلى أنَّ البلاغَ تكليفٌ للنَّبيِّ ﷺ، وهو أمانةٌ ثقيلةٌ واجبةٌ عليه، وفي التّعبير بها تسليةٌ للرّسول ﷺ، لمّا نفى عنه أمرَ الحفظ للمُعْرِضين؛ فيكفيكَ يا رسولَ اللّه أمرُ البلاغ، وما يكتنفُه منَ الصّعاب والمشاقّ.

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَيْكَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ محلُّ العنايةِ

قُدِّمَ ﴿عَلَيْكَ﴾ على ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّمِ المُكلَّفِ ﷺ، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو البلاغ؛ ليُتلقَّى بنفسٍ يقظَى، وفي التّقديم إشارةٌ إلى أنّ أمر البلاغ هو اختيارُ اللّه لك، وفي هذا تفريقٌ بين مقام النّبوّة ومقامِ الألوهيّة.

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.

سرُّ التّعبير بالبلاغ دون غيره:

الـدّلالـةُ على إيـصـال الـخبر إلى المُخبَر به على الوجه الأكمل

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالبلاغ في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ دونَ غيره كالإخبار والإعلام؛ لأنّ البلاغ يدلُّ على إيصال الخبر إلى المخبَر به، وفي هذا دلالةٌ على أنّ وظيفةَ النّبيّ إيصالُ الرّسالة إليهم على الوجه الأكمل، من غير تقصير ولا فتور.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾:

بلاغُ الرِّسالةِ هو المعهود

تعريفُ ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بلاغٌ مخصوصٌ، وهو بلاغُ الرِّسالةِ الَّتي كلَّفَ اللّهُ تعالى بها نبيَّهُ ﷺ، وفي ذلك إخراجٌ لأمور البلاغ التي لا تتعلّق بالرّسالة، بل هي من شؤون الدّنيا.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ﴾:

لا عـجـبَ في الإعـراضِ عـنِ المـخـلـوقِ بعدَ الإعـراضِ عـنِ الخالقِ

جملةُ ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، لِما تضمَّنَتْهُ هذهِ مِنَ التَّعريضِ بتسليةِ الرَّسولِ ﷺ على ما لاقاهُ مِنْ قومِه، والمعنى: لا يَحْزُنْكَ إعراضُهم عن دعوتِكَ؛ فقد أعرضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزيادةِ الكفرِ[1]، وممّا يُذْكَر في بلاغة عطف هذه الجملة: أنَّهُ لمّا ذكرَ ما أرسلَهُ بهِ؛ أتبعَهُ بما جُبِلَ عليهِ الإنسانُ؛ لبيانِ أنَّهُ ﷺ لا حُكمَ لهُ على الطِّباعِ، وأنَّ الَّذي عليهِ إنَّما هو الإسماعُ لا السَّماعُ[2].

بلاغةُ التّوكيدِ في: ﴿وَإِنَّآ﴾:

العنايةُ بوصفِ فـرحِ الإنـسـانِ بالنِّعمةِ

دلّ التّوكيدُ بـ (إنّ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾؛ على شدَّةِ العنايةِ ببيان طبع الإنسان عند النّعمة والنّقمة، من البَطَر والكفر، وتجليتِهِ وإظهارِهِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133، وأبو موسى، آل حم، ص: 224.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 225.

سرُّ ابتداءِ الكلامِ بضميرِ العظَمةِ (إنّا):

سـوءُ معاملةِ الإنسانِ معَ ربِّهِ

ابتداءُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ بضميرِ الجلالةِ مسنَدًا إليهِ فعلٌ دونَ أنْ يقالَ: (وإذا أذَقْنا الإنسانَ) ... إلخ، معَ أنَّ المقصودَ وصفُ هذا الإنسانِ بالبَطَرِ بالنِّعمةِ، وبالكفرِ عندَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِنْ هذهِ الجملةِ تسليةُ الرَّسولِ ﷺ عن جَفاءِ قومِهِ وإعراضِهم، فالمعنى: أنَّ معاملتَهم ربَّهم هذهِ المعاملةَ تُسلِّيكَ عن معاملتِهم إيّاكَ[1]، وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بهذا الأسلوب أنّه حكايةٌ لبيان أنّه خُلُقٌ للنّاس كلّهم؛ لكنّ مظاهره متفاوتةٌ بتفاوت أفراده في التّخلّق بالآداب الدّينية[2]، وفي وقوعِ ضميرِ العظَمةِ اسمًا لـ (إنَّ) مِنْ إيقاظِ السّامعِ وتنبيهِهِ ما لا يخفَى[3].

سرُّ تصديرِ الشَّرطيَّةِ الأولى بـ﴿إِذَآ﴾ والثّانيةِ بـ (إنْ):

رحمـةُ اللـهِ سبقَتْ غضبَهُ

تصديرُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ الأولى بـ ﴿إِذَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾، والثّانية بـ (إنْ) في قولِهِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾؛ لأنَّ إذاقةَ النِّعمةِ محقَّقةٌ كالصِّحَّةِ وسَعَةِ ذاتِ اليدِ والأمنِ، فاستُعمِلَ فيها ﴿إِذَآ﴾ الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، بخلافِ إصابةِ البليَّةِ[4]، فهي نادرةٌ بالنِّسبةِ لإصابتِهم بالنِّعمةِ، ولذلكَ استُعمِلَ فيها (إن)، الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الشَّكِّ في وقوعِ الشَّرطِ[5]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ النِّعمةَ هي الأصلُ؛ لعمومِ رحمتِهِ تعالى، وسَبْقِها غضبَهُ[6]، وعلى أنَّ النِّعمةَ مِنْ مَحْضِ عطاءِ اللهِ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ للإنسانِ أيُّ حقٍّ فيها[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 134.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 225.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(7) أبو موسى، آل حم، ص: 226.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإذاقةِ:

نعـيـمُ الـدُّنـيـا قَـطْـرةٌ في نعيمِ الآخرةِ

عُبِّرَ بالإذاقةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نِعَمَ اللهِ في الدُّنيا وإنْ كانَتْ عظيمةً إلّا أنَّها بالنِّسبةِ إلى السَّعاداتِ المُعَدَّةِ في الآخرةِ كالقَطْرةِ بالنِّسبةِ إلى البحرِ[1]؛ فلذلك سُمّي الإنعامُ بها إذاقةً، وفي التَّعبيرِ بالإذاقةِ تنبيهٌ على تحقُّقِ النِّعمةِ؛ لإشعارِها بشدَّةِ الإصابةِ[2]؛ لأنَّ الشَّيءَ المَذوقَ يتمكَّنُ طعمُهُ مِنَ الفمِ، ولا يمكنُ دفعُهُ، فالإذاقةُ هنا مجازٌ في شدَّةِ الإصابةِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَذَقْنَا﴾:

تشبيهُ الإعطاءِ المُشتملِ على أثرِ النّعمةِ بتذوّقِ ما يُؤكلُ ممّا يُشتهى ويُرغَبُ فيه

في قوله تعالى: ﴿أَذَقْنَا﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، بتشبيه الإعطاء المُشتمِل على إدراك أثر النّعمة منَ الطّعام والملبس والصّحّة، وغيرِها منَ المحسوسات بتذوّق ما يُؤكل ممّا يُشتهى ويُرْغَب فيه، ووجه الشّبه تحصيلُ الشّيء والانتفاع به على وجه حصول المقصود منه[4].

بلاغةُ صيغةِ الماضي في: ﴿أَذَقْنَا﴾:

إذاقـةُ النِّـعَـمِ كثيرةٌ متيقَّنةٌ

جِيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بحصولِهِ[5]، ولذلكَ غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أقربُ إلى القطعِ باعتبارِ لفظِه، وإنْ كانَ معناهُ على الاستقبالِ؛ لأنَّ الشَّرطَ يقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فتكونُ إذاقةُ الرَّحمةِ وفَرَحُ الإنسانِ بها أمرينِ مقطوعًا بهما.

نُكْتَةُ إسنادِ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ:

تعـظـيـم شـأنِ الـنِّـعَـمِ بـأداء شكرها للعظيم سبحانه

أُسنِدَ فعلُ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ هذا الفعلِ بكونِهِ صادرًا عن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 7/ 247.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 427.

ذي العظَمةِ والجلالِ، أي: أذَقْنا بالعظَمةِ الَّتي لا يمكنُ مخالفتُها[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ للإنسانِ على عِظَمِ شأنِ النِّعَمِ، وأنَّهُ ينبغي احترامُها، وأداءُ حقِّ اللهِ فيها بشكرِها وصرفِها في وجوهِ الخيرِ.

سرُّ التّعبيرِ بالإنسان دون النّاس:

الإيماءُ إلى أنّ الخُلُقَ المُخْبَرَ به عنهم مختصٌّ بنوعهم

عدل القرآنُ الكريم عنِ التّعبير بالنّاس إلى التّعبير بالإنسان في قوله: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ للإيماء إلى أنّ هذا الخُلُقَ المُخْبَر به عنهم هو من أخلاق النّوع، لا يزيلُه إلّا التّخلّق بأخلاق الإسلام؛ فالذين لم يُسلموا باقون على هذا الخُلُق، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنّ اسم الإنسان اسمُ جنس يتضمّن أوصافَ الجنس المسمّى به، على تفاوتٍ في ذلك بسبب غلبة الهوى، وآياتُ القرآن في هذا الإطار كثيرةٌ، منها: ﴿*إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: 19]، ومنها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: 6][2].

دلالةُ تعريفِ الإنسانِ في الموضعين:

احتمالُ الدّلالةِ للجنسِ والعهدِ

اختلفَتْ أقوالُ المفسِّرينَ في دلالة (أل) في لفظ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾؛ **فمنهُم** مَنْ حملَها على خصوصِ الإنسانِ الكافرِ باللهِ[3]، **ومنهُم** مَنْ حملَها على ما يعمُّ أصنافَ النّاسِ[4]، **ومنهُم** مَنْ حملَها على إرادةِ المعنيين، على أنَّ أوَّلَهما هو المقصودُ، والثّانيَ مندرجٌ بالتَّبَعِ[5]، **ومنهُم** مَنْ عكسَ، وعلى هذَينِ الوجهينِ: فالمرادُ بالإنسانِ في الموضعِ الأوَّلِ والموضعِ

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.

الثّاني معنىً واحدٌ، وهو تعريفُ الجنسِ المراد بهِ الاستغراقُ، أي: إذا أذَقْنا النّاسَ، وإنَّ النّاسَ كفورونَ، ويكونُ استغراقًا عُرفيًّا أُريدَ بهِ أكثرُ جنسِ الإنسانِ في ذلكَ الزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّ أكثرَ نوعِ الإنسانِ يومَئذٍ مشركونَ، وهذا هو المناسبُ لقولِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي: شديدُ الكفرِ، ولقولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِنَ الكفرِ[1]، وذهب البعض إلى ترجيح أنّ (أل) في الموضع الأوّل للعهد، وفي الثّاني للجِنس، والقرينة الدّالّة على العهد قولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، والمعهود الكفّارُ المخاطبون؛ لترتّب قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ على قوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾[2].

دلالةُ (مِنْ) في: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾:

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ للابتداءِ، فتُفيدُ أنَّ ابتداءَ النِّعَمِ مِنَ اللّهِ تعالى، فهو المُفيضُ للعطايا والهِباتِ.

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَّا﴾ على ﴿رَحْمَةً﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾؛ للعنايةِ بكونِ الرَّحمةِ مِنَ اللّه، وكونِها عطاءً مَحْضًا[3]، وللتَّشويقِ للمُؤخَّرِ ليَرْسَخَ في النَّفسِ عندَ ورودِهِ عليها.

الرَّحمةُ مِنَ اللهِ يقينًا

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرَّحمةِ دون النّعمة:

المرادُ بالرَّحمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ النِّعمةُ مِنَ الصِّحَّةِ والغِنى والأمنِ[4]، وفي التَّعبيرِ عنها بالرَّحمةِ للدّلالةِ على أنَّ هذهِ النِّعمةَ مِنْ مَحْضِ عطاءِ اللّهِ وفضلِه، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لهذا الإنسانِ أيُّ حقٍّ فيها[5]، وفي التّعبيرِ بها دون النّعمة الإشارةُ إلى

الرَّحمةُ عطاءٌ مَحْضٌ مِنَ اللهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 133.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 52.

دعوة الإنسان إلى توظيف النّعم للوصول بها إلى الرّحمة؛ لأنّ بعض النّعَم قد تصل بصاحبها إلى الشّقاء؛ لذلك عَبّر عنها بالرّحمة؛ لحثّ الإنسان على الاستجابة لأمر ربّه.

سرُّ التّعبيرِ بالرّحمة دونَ الحَسَنة:

إصابةُ الحسنة تَفَضّلٌ منَ الله ورحمةٌ

عبّر القرآنُ الكريم بالرّحمة في جملة الشّرط الأولى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، مع أنّ المناسبَ لمقابلة الشّرطيّة الثّانية ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ التّعبيرُ بالحسنة؛ للإشارة إلى أنّ إصابة الحسنة تَفَضّلٌ منَ الله ورحمةٌ، وأمّا السّيّئة فبِكَسْب العبد، ولذا لم يَذْكُر في الرّحمة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿رَحْمَةً﴾:

مظاهرُ الرَّحمة الإلهيَّة عديدةٌ

دلّ تنكيرُ ﴿رَحْمَةً﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ على تعدّد مظاهرِها وأنواعها؛ فأيّ نوع مِنْ أنواعِ الإكرامِ مِنْ صحّةٍ أو غِنىً ونحوِ ذلكَ[2]، هو رحمةٌ منَ الله تعالى.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالفَرَحِ دونَ البَطَر:

الإنسانُ مجبولٌ على حُبِّ النِّعَمِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالفرح في قوله: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾؛ لأنّ المرادُ بالفرحِ في الآية ما يشملُ الفرحَ المجاوِزَ حَدَّ المَسَرَّةِ إلى حدِّ البَطَرِ والتَّجبُّرِ[3]، وهذا أغلب استعمالات القرآن الكريم في موضع الذّمّ، وفي التّعبيرِ بهِ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ مجبولٌ على حُبِّ النِّعَمِ، ومشغوفٌ بها؛ بخلاف البَطَر فيُطلق على سوء استعمالِ النّعمة، بوضعها في غير موضعها، ولأنّ الفَرَح أعمُّ منَ البَطَر؛ لأنّه يكون محمودًا ويكون مذمومًا، بخلاف البَطَر.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 349.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿فَرِحَ﴾:

رسـوخُ صفةِ البَطَر والتّجبّر فيهم، مع عدم دوام البَطَر طويلًا

جاء التّعبيرُ بالماضي ﴿فَرِحَ﴾ ولم يأت بالمضارع الذي يدلّ على استحضار الصّورة؛ لأنّ المقام هنا يدلّ على رسوخ صفة البَطَر والتّجبّر فيهم، وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الفرح والبَطَر لم يَدُم طويلًا.

دلالةُ إفرادِ الضَّميرِ في: ﴿فَرِحَ﴾ وجمعِهِ في: ﴿تُصِبْهُمْ﴾:

مراعاةُ لفظِ الإنسانِ تارةً ومعناهُ أخرى

توحيدُ الضَّميرِ في ﴿فَرِحَ﴾ لمراعاةِ لفظِ الإنسانِ، وإنْ كانَ معناهُ جمعًا، ولذلكَ جاءَ بعدَهُ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بضميرَي الجماعةِ، ثمَّ عادَ إلى الإفرادِ، فقالَ: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾[1]، وممّا يُذْكَر في سرّ جمعِ الضّمير في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنّه ليس كلُّ إنسان يدخل في حيِّز هذا الشّرط، وجوابِه فيَكفر باللّه أو يُسيء الظّنّ به في حال الضّرّ، بل إنّ الواقعين في حيِّز هذا الشّرط وجوابِه هم الذين لا يؤمنون باللّه مطلقًا، أو لا يؤمنون به إيمانًا ثابتًا، بل إيمانُهم متزعزع[2].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهَا﴾:

فـرحُ الإنسانِ واقـعٌ على الرَّحمةِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ لتعديةِ الفعلِ إلى المفعولِ، فتفيدُ أنَّ فرحَ الإنسانِ واقعٌ على الرَّحمةِ وملاصق لها؛ فكأنّه لا انفصالَ بين الفَرَح والنّعمة، وفي هذا تصويرٌ لطبيعة الإنسان في تلقّي النّعمة.

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ...﴾:

بيانُ جوهرِ الإنسانِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾، وهو تمامٌ لهُ، والشِّقُّ الثّاني مِنْ معناهُ، وهاتانِ الجملتانِ في تقابلِهما

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 135.
(2) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 85.

تكشفانِ جوهرَ الإنسانِ ومَعْدِنَهُ، وأنَّهُ لن يعيشَ حياةً إنسانيَّةً منضبطةً إلّا بالوَحْيِ واتِّباعِ الشَّرعِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) في: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾:

دلّ التّعبير بـ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ على قلّة الإصابة بالسّيّئة في مقابلة إصابتهم بالنّعمة، وهي كثيرة، وسبق تفصيل ذلك عند سرّ التّعبير بـ ﴿إِذَآ﴾.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإصابةِ دونَ المَسّ:

الرَّحمةُ أكثرُ مِنَ النِّقْمةِ

عُبِّرَ بالإصابةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دون المسّ؛ للتّنبيهِ على أنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ أخفُّ مِنْ إصابةِ الرَّحمةِ المُعبَّرِ عنها بالإذاقةِ[2]، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لكونِ الرَّحمةِ أكثرَ مِنَ النِّقْمةِ، ولأنّ المَسّ أعمُّ؛ لأنّه يقال في كلّ ما ينال الإنسانَ من أذًى؛ بخلاف الإصابة، فهي أخصّ.

نُكْتَةُ صيغةِ المضارعِ في: ﴿تُصِبْهُمْ﴾:

جِيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾؛ لملاءَمتِها دلالةَ (إنْ) على عدمِ الجَزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، فتفيدُ قِلّةَ وقوعِ السَّيِّئةِ بالنِّسبةِ للرَّحمةِ[3].

سرُّ إسنادِ الإصابةِ إلى السَّيِّئةِ، دونَ لفظِ الجلالة:

تعليمُ التزامِ الأدبِ معَ اللهِ

أُسنِدَتِ الإصابةُ إلى السَّيِّئةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾، ولم يُقَلْ: (وإنْ أصَبْناهم بسيِّئةٍ) أو نحوُ ذلكَ - معَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ مِنَ اللهِ - ؛ للإيذانِ بأنَّ السَّيِّئةَ بمَعْزِلٍ عنِ الانتظامِ في سِلْكِ الإرادةِ بالذّاتِ[4]، وفيه تعليمٌ بالتزامِ الأدبِ مع اللّه تعالى في نسبة الفعل من باب ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشّعراء: 80].

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 226.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 226.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 53.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّيِّئةِ:

الأمـــــراضُ والمـــخـــاوفُ ونحـوُها تسوءُ الإنسانَ

أوثِر التّعبيرُ بالسَّيِّئةِ دون غيرها في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرضَ والفقرَ والمخاوفَ ونحوَ ذلكَ ممّا يَسوءُ صاحبَهُ، ويُلحِقُ بهِ الأذى والغَمَّ[1]؛ فهي تدلُّ على العموم؛ ويُؤكّد هذا أنّ السَّيِّئة في الأصلِ: الفَعْلةُ القبيحةُ[2]، وهي صفةٌ مُشبَّهةٌ مِنْ ساءَهُ، إذا فعلَ بهِ ما يَكْرَهُهُ، نقيضُ سَرَّهُ[3]، والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ[4].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿سَيِّئَةٌ﴾:

كُفْرُ الإنسانِ معَ قلَّةِ الابتلاءِ

تنكيرُ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ للتَّقليلِ، والمعنى: وإنْ تُصبْهم سيِّئةٌ وإنْ قلَّتْ فإنَّ الإنسانَ كفورٌ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ ذمٍّ كُفْرِهِ[5]، والتَّنبيهِ على سوءِ معاملتِه، وفي هذا تصويرٌ لجَزَعِ الإنسانِ غيرِ المؤمنِ منَ الإصابةِ بالسّيّئة ولو كانت قليلة.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾:

السَّيِّئةُ تُصيبُ العبدَ بكَسْبٍ منهُ

أوثِر التّعبير بالباء في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لدلالتها على السَّببيَّةِ، فتُفيدُ أنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ للنّاسِ تكونُ بسببِ أعمالِهم[6]، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهِم، وحَثٌّ لهُم على تَرْكِ الكُفرِ والمعاصي، وفيها إشارةٌ إلى عدالته ﷻ مع خَلْقِه.

سرُّ التّعبيرِ بـ(ما):

كـلُّ ما يعملُهُ الإنسانُ يُجازَى عليهِ

أوثِر التّعبيرُ بـ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لتعدّد معناها؛ فيحتمل أن تكون مصدريَّةً، والمعنى: بتقديمِ أيديهِم،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سوء).
(4) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.

ويحتملُ أنْ تكونَ موصولةً، أي: بالَّذي قدَّمَتْهُ أيديهِم، وأيًّا ما كانَ فكلُّ ما يعملُهُ الإنسانُ يُجازَى عليهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّقديمِ دونَ الكسبِ:

سَبْقُ العملِ الابتلاءَ بالسَّيِّئاتِ

اختيرَ التَّعبيرُ بتقديمِ اليدينِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دونَ كَسْبِهما، لأنَّ عادةَ القرآنِ قد جرَتْ بأنَّهُ يستعملُ كَسْبَ اليدينِ في سياقِ الحديثِ عنِ الأخذِ والاستحواذِ، ويَستعملُ تقديمَ اليدينِ حينَ لا يكونُ السِّياقُ للحديثِ عنهما[1] كما هنا، وفي التَّعبيرِ بالتَّقديمِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ العملَ قد تقدَّمَ إصابةَ السَّيِّئةِ، وتحقَّقَ قبلَها، وذلكَ أنسبُ بمقامِ بيانِ تسبُّبِ السَّيِّئاتِ عن أعمالِهم[2]، ولأنّ التّعبير ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أبلغُ مِنَ التّعبير (بما كسبت)، وذلك في مقام الذّنوب، وهذا مذكورٌ في كثير من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: 182][الأنفال: 51]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحجّ: 10].

نُكْتَةُ صيغةِ الماضي في: ﴿قَدَّمَتْ﴾:

سببُ إصابةِ السَّيِّئةِ متحقِّقٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عملَهم قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ إصابةِ السَّيِّئةِ لهُم، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لكونِ إصابةِ السّوءِ لهُم بسببِ عملِهم، وفيه دليلٌ على أنّ ارتكابَهم السّيّئاتِ الذي أدّى بهم إلى العقاب أمرٌ مُتحقّقٌ فيهم، وراسخٌ في طباعهم.

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ التَّقديمِ إلى الأيدي:

أكثرُ عملِ الإنسانِ بيده

إسنادُ التَّقديمِ إلى الأيدِي في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لتأكيدِ إسنادِ الفعلِ إلى صاحبِ الجارحةِ، كما في قولِكَ: رأتْهُ عيني، وسَمِعَتْهُ أُذُني[3]، ولأنّ اليد هي آلةُ الفعل وسببٌ في

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانية: 5/ 173.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 260.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 228.

وقوعه؛ لذلك أُسند الفعلُ إليها على سبيل المجاز المرسل؛ لأنّ الفاعل هو الإنسان لا اليد، والعلاقة هي السّببيّة؛ لأنّ اليد هي السّبب فيما يقترفُه الإنسانُ من أعمال.

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾:

كـــلُّ نـفـسٍ مؤاخَذةٌ بعملِها لا بعملِ غيرِها

إضافةُ الأيدي إلى ضميرِ النّاسِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لبيانِ اختصاصِها بهم، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لصُدورِ التّقديم عنهُم، والمعنى: بما قدَّمَتْ أيديهم، لا أيدي غيرِهم، وفي الإضافة دليلٌ على أنّ المسؤليّة ذاتيّة، ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدّثر: 38].

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِنَّ﴾:

ابتئاسُ الإنسانِ بإصابةِ السَّيِّئةِ

الظّاهرُ أنَّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ رابطةٌ لجواب (إن) الشّرطيّة، أو عِلّةٌ للجواب المُقدّر، والتّقدير: (وإن تصبهم سيّئةٌ نَسوا النّعمة فورًا؛ لأنّ الإنسان كثيرُ كُفْران النّعمة)، وعلى ذلك تكون جملة ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ ليسَت جوابَ الشَّرطِ؛ إنّما دليلٌ عليه؛ لأنَّهُ غيرُ مترتِّبٍ على إصابةِ السَّيِّئةِ، وربَّما كانَ ترتُّبُهُ على إذاقةِ الرَّحمةِ أقربَ؛ لأنَّهُ يقالُ: ﴿كَفُورٞ﴾ في سياقِ ذِكْرِ النِّعمةِ، وجوابُ الشَّرطِ المحذوفُ هنا يُساعِدُ على تقديرِهِ جوابُ الشَّرطِ المذكورُ في الجملةِ قبلَهُ[1].

سِرُّ ذِكْرِ هذه الفاصلة مع إصابة السّيّئة:

ذُكِرَ وصفُ الإنسانِ بالكُفر للنّعمة في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ معَ إصابةِ السَّيِّئةِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يُفيدُ كثرةَ السَّيِّئاتِ، وأنَّ إصابةَ السَّيِّئةِ لهذا الإنسانِ قليلٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ السَّيِّئاتِ الَّتي قدَّمَتْها يداهُ، وأنَّهُ لم يُحاسَبْ على كلِّ ما قدَّمَتْهُ يداهُ، وهذا يوجِبُ الشُّكْرَ، ولكنَّهُ كَفورٌ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 227.

سِرُّ مَجيءِ الفاصلة جملةً اسميّة:

وَصْـفُ الكُفرانِ في الإنسان ليس عـارضًـا، بـل هو جِبلّةٌ وطبيعة فيه

جاءت فاصلةُ الآية ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ جملةً اسميّة؛ للإشارة إلى أنّ هذا الوصفَ للإنسان ليس وصفًا عارضًا، بل هو جِبلّةٌ وطبيعة فيه، حتّى ولو لم يظهر ذلك في معيشته مع النّعم فترةً منَ الزّمن؛ فإذا ما أصابه ضرٌّ كشفَ حقيقتَه، وأبان عن جُحوده ونُكرانه.

بلاغةُ التّوكيدِ في: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾:

اسـتـعـظـامُ الإعـــراضِ عن دعوةِ الخيرِ

توكيدُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لأنَّهم كانوا يدَّعونَ الشُّكرَ، ويُنكِرونَ الكفرَ[1]، أو لمناسبةِ التَّسليةِ، بأنْ نُزِّلَ السّامعُ الَّذي لا يشكُّ في وقوعِ هذا الخبرِ منزلةَ المُتردِّدِ في ذلكَ؛ لاستعظامِه إعراضَهم عن دعوةِ الخيرِ، فَشُبِّهَ بالمُتردِّدِ على طريقةِ المَكنيَّةِ، وحرفُ التَّأكيدِ مِنْ روادفِ المشبَّهِ بهِ المحذوفِ[2].

سرُّ إظهارِ لفظِ الإنسانِ:

جنسُ الإنسانِ كفورٌ بالنِّعَمِ

جاء التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ مُظهرًا، ولم يُقَلْ: (فإنَّهُ كَفورٌ) بالإضمارِ، ليُسجِّلَ على أنَّ جنسَ الإنسانِ موسومٌ بكفرانِ النِّعَمِ[3]، وأنَّ طبيعتَهُ تقتضي هذهِ الحالةَ، إلّا إذا أدَّبَها الرَّجلُ بالآدابِ الَّتي أرشدَ اللّهُ إليها[4]، وممّا يُذْكر في سرّ التّعبير بالإظهار ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ الإشارةُ إلى أنّ كُفرانه مسبّبٌ عن نسيانه نعمةَ اللّه عليه، وهذه الدّلالة مستفادَةٌ منِ اشتقاق لفظِ الإنسان بناءً على أنّه منَ النّسيان[5].

بلاغةُ المجازِ في إسناد كُفران النّعمة إلى جنس الإنسان:

الـحُـكْـمُ على الجِنسِ بحالِ أغـلـبِ أفـرادِه للملابسة

أُسندت هذه الصّفة (كفران النّعمة) إلى جنس الإنسان، معَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 134.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 83.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 609.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 260.

كونِها مِنْ خواصِّ المجرمينَ لغلَبتِهم فيما بينَ الأفرادِ[1]؛ يعني: أنّه حَكَمَ على الجِنس بحالِ أغلبِ أفراده للملابسة على المجاز العقليّ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالكَفورِ:

شـأنُ الإنسـانِ تـعـدادُ الـنِّـقَـمِ ونسيانُ النِّعَمِ

عُبِّرَ بالكفورِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ دونَ غيرِه كالجُحود والنّكران؛ لأنَّهُ يُطيفُ بهذهِ الكلمةِ معانٍ كثيرةٌ، منها الحزنُ، ومنها اليأسُ، ومنها الإحباطُ، ومنها القُنوطُ[3]، ومنها نسيانُ النِّعمةِ رأسًا، وتذكُّرُ البليَّةِ واستعظامُها، وعدمُ تأمُّلِ سببِها[4].

سرُّ التّعبير بـ (فعولٍ) دون فاعل:

شـدَّةُ مبالغةِ الإنسانِ في الكفرِ

عَبّرَ بصيغةِ (فعولٍ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾، ولم يُقَلْ: (كافرٌ)؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ مبالغةِ الإنسانِ في الكفرِ، أي: فإنَّ الإنسانَ شديدُ الكفرِ[5]، ويَذْكُر البليّةَ ويستعظمُها ولا يتأمّلُ سببَها؛ فحالُه كفرانُ النّعمِ، غير شكورٍ لها.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:

في هذه الآية احتباكٌ؛ حيثُ ذكر الفرحَ أوّلًا في قوله: ﴿فَرِحَ بِهَاۖ﴾، وهو دالٌّ على حذف الحُزْن ثانيًا، وذَكر الكُفْرَ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾، وهو دالٌّ على حَذْفِه أوّلًا[6]، وبيانُ ذلك فيما يلي: ذَكَرَ في الحالة الأولى الفَرحَ؛ لأنّه السّببُ في كُفر النّعمة، فأبْرَزَه تحذيرًا منه، ولم يَذْكُر كُفران النّعمة في اللّفظ، اكتفاءً بدلالة مقابله عليه، وللإشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يقع منَ الإنسان، وذَكَر الكفرَ في الحالة الثّانية للدّلالة على خطورة الجَزَع وعدم الثّبات عند الشّدائد، وأنّه يُؤدّي إلى الكفر، ولم يَذْكر الحُزْنَ في اللّفظ لدلالة الكلام عليه، وللإشارة أنّه لا ينبغي أن يكون منَ الإنسان.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 36.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 180.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 227.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 232.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 647.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"